

# السوريالية بنكهة شعبية

## حامد ندا ولوحاته المدهشة



محب جميل

القاهرة - أعادت الهيئة المصرية العامة للكتاب طباعة كتاب "حامد ندا.. نجم الفن المعاصر" للناقد الدكتور "صبحي الشاروني" في طبعة شعبية ضمن سلسلة فنون في مادة صفحة من القطع الطويل، وتعد مسيرة الفنان الكبير "حامد ندا" من أهم التجارب الفنية في الحركة التشكيلية المصرية؛ حيث استطاع أن يغير المفاهيم السائدة في الحياة التشكيلية المصرية إلى جانب مجموعة من كبار الفنانين والذين عرفوا باسم جماعة الفن المعاصر، وقد فاز بالعديد من الجوائز أهمها جائزة فن التصوير الزيتي الأولى من صالون القاهرة مرتين: عام 1957 ثم 1959، وجائزة التصوير الثانية من بينالي الإسكندرية عام 1959، وجائزة الشراع الذهبي الأول من الكويت عام 1975، وقد سجلت أعماله بين عامي 1970 و1986، لكنه توفي قبل أن يتسلم جائزة الدولة التقديرية في الآداب والفنون. ويلقي هذا المقال الضوء على أهم المحطات في حياة (ندا).

### تكوينات خصبه

ولد حامد ندا في 19 نوفمبر عام 1924 في منزل يحمل طرازا عربيا أصيلا بشارع (الثلول) بحي الخليفة قرب مسجد السيدة سكينة بالقاهرة، والجدير بالذكر أن هذه المنطقة ذات طابع معماري من الطراز الخاص، فيها المباني الملوكية والقصور التركية والأسلطة العثمانية وبعض المقاهي التي تحتل داخل المباني ذات البوابي العتيقة بالإضافة إلى مساجد الأيوباء والموائد الشعبية، وسط هذا التنوع والتداخل بين الحضارات المختلفة والزخرفة المعمارية والثقافية وجد (ندا) حاله طلاء يتجول بين الموائد الشعبية وخیام لاعبي السيرك وحلقات الذكر الإنشائية والأراجوز وصندوق الدنيا.

### جماعة الفن المعاصر

في سن مبكرة تمكنت موهبة (ندا) من أن تفصح بآثاره بديهة الفن المعاصر، فقام مدرس الرسم بتوجيهه إلى نقل أعمال كبار الرسامين في العالم، وقد استهذهه هذه التجربة خبرة مكنته من اجتناب التقليد القبول بمدارسه الفنية العليا فيما بعد. التحاقه بالمدرسة الثانوية بعد (الحلقة المضطربة) في حياته الفنية حيث التقى باستاذها (حسين يوسف أمين) في الفترة (1984-1984).

في هذه المرحلة كان (ندا) أكثر فنانا الجماعة شفاوة ومرحاً بالإضافة إلى رسوماته الجيدة التي تعبر عن واقعه الاجتماعي بالحي الفعير المكلوم الذي كان يسكنه.

### الديك المتفخ

ارتكز أسلوب (ندا) في بداياته منتصف الأربعينات على التحويل والمبالغة والانتقال مما هو راسخ واقعي إلى ما هو أسطوري تشتمل، من هنا يبدو أن الأيقونات الرمزية بنكهة اللوحات لم تكن تستند على النسبة الذهبية الثالثة فيما عرف بمرحلة (التجسيد والتكثيف) التي جعلت من الأشياء كما لو أنها مائلة في الحقيقة يمكن ملاحظتها بالإضافة إلى ضخامة أجسام الكائنات التي قد تبدو مربوطة بجمي إلى الأرض كحماكة للفسلح ونقل الوزن الذي بدوره يجلي إلى كلفهم المادي والفكري والمعنوي داخل هذه البيئة. من هنا يبدو أن الديك الذي رسمه في من الخمسينيات وكانه معادل للرجولة والفضولة؛ بما في من ترميزات فكرية في ذاكرته المخزونة. ثم يتحول في النصف الثاني من الخمسينيات إلى رمزاً للاحكام والأعمال، حيث يصبح في أطراف اللوحات والشوارع كمناد على الثورة. كان هذا الديك الذي يتحور من لوحة إلى أخرى فناناً على عقد امرأة وأخرى فوق عقد منادع وأخرى مكعب جارج، هو أقرب في الأساس إلى كونه (تيمية إيمانية) مقدسة تختص لحقوات سابقة في بيئة الشعبية الفقيرة. قد رسبت البيئة الشعبية لدى (ندا) العديد من مفردات الغيبيات والتوالت التي

وظفها فيما بعد في العديد من لوحاته في تعبير مفعج عن شخصيات توأمت ولازمت أضرحة الأيوباء، وقد رسمهم بشكل مجسم صممت كتل من الأخشاب والنحاس الصماء، ويبدو أنهم فقلوا أن يعصوا عيونهم ويديروا لنا ظهورهم في تعبير منقشف وخشن، مما يوحي في النهاية بتلك الحالة من التناوب والاتلاق، بالإضافة إلى التناغم والأشعة والطواطم، والأحذية، ولمية الكيروسين الرمادية التي توزع قوالب باهتة ومتسخة من الظلال والأضواء على جنبات الزير المشروخ الذي يسرب مياحه ليل ونهاراً. ناهيك عن مشاهد القبور والشواهد، والإبراص والقطط البلدي والسحالي في تعبير جئاتزي حد.

### الحياة الشعبية

من جانبته يعلق الناقد (إيميه أزار) على تلك المرحلة المؤسسية في حياة حامد ندا الفنية قائلا: "إن الشخص الصماء تغل أنشأها لا أسماء لها يحضنون أحلاما جسدية ومقلقة، ومشروعات للمستقبل يقودها القدر ويأبى عليهم تحقيقها في تعبير ميتافيزيقي". لكن (ندا) كان له رايه الخاص بشأن تلك المرحلة حيث يرى تنامسا خاصا جمع بين لوحاته ولوحات رابع عباد في التعبير عن الحياة الشعبية من حيث معالجة الشخص، الموضوعات، والمفردات. ويتحدث ندا عن عباد قائلا: "لقد صور رابع عباد بموهبة لا تنكر واقع الحياة الشعبية المصرية، أما أنا فقد عثيت بالغوص إلى ما تحت الواقع وما في نفوس سكان الأحياء الشعبية من رواسب لا تثبت أن تنعكس على سطح البيئة الشعبية وسلوك رجالها ونسائها، ويمكن أن تتبين أيضا شخصياتي الشعبية - شخصيات عجر - ليس فيها اهتمام بتفاصيل القسامات أو الملامح أو بما يميز الأفراد. عن بعضهم البعض، فأنا لا أصور زيدا أو عبدا، لا أصور حدادا أو نجارا أو فلاحا بل أصور الإنسان الشعبي، ولا أصوره لذاته بل لأبرز موقفا إنسانيا عاما. وتعني الدلالات الإنسانية من خلال رؤية تشكيلية لمجتمع تتكلمت عليه الزبايا منذ أم طويل. لكن فيها شيء ما أو ربما ثمة ما في الجو الكاوسمي المحيط بها ما يجردك على التعاطف معها كما تتعاطف مع شخصيات رواية (زقاق المدق) لتجيب محفوظ مثلا". لذلك يتضح أن العالم السوريالي عند (ندا) إفرزا ذاتي دون أي سابق دراسة؛ فالقراءات السابقة لمخزون علم النفس والفلسفة والأدب مع تتبع خطوط الرسم لدى فنان العالم الكبار، فإتته إلى سوريالية خاصة مصبوبة بنكهة شعبية.

### المجهول ليزال

إن أهم ما تستقطبه لوحات حامد ندا هو عنصر العيشة، وهو العنصر الذي ظل مشعا لدى جماعات الفن المتمردة في مصر، وبخاصة عند جماعتي الفن المعاصر والفن والحرية.

لقد أصدرنا كتالوجا فنيا بعنوان (المجهول ليزال)؛ حيث تم توزيعه في معرض (حامد ندا) الخاص الذي أقامه عام 1959 بالقاهرة، وربما بعد هذا آخر عمل جماعي للفنانين المتمردين في مصر. ول(ندا) مجموعة من الكلمات والرسوم داخل هذا الكتالوج (الكتيب المصور). انتقل (ندا) مرة أخرى في فترة الخمسينيات إلى تغيير أسلوبه في الرسم، وقد ساعدته مرحلة عمله كمتربس للرسم في أحد المدارس الابتدائية على اكتشاف موهبة الأطفال في الرسم والوانهم البدائية التي تقرب من حيز الواقع مما دفعه في ضخامة أجسام الكائنات التي قد تبدو النهائية إلى التخلي عن فترة المنظور والقوالب التقليدية المصمتة والملامح الخشنة.

وتحول اهتمامه إلى الحيوية والألية الحركية بدلا من السكون والصمت، وبالفعل تخلى عن التجسيم الإسطواني للشخص، مع إلغاء المنظور الهندسي والتخلي عن الإبهام بالبعد الثالث. وأصبح التسطح هو المسيطر على منطق التشكيل.

### المجهول الغرائبي

في المرحلة الأولى استطاع (ندا) أن يسقط الخلفية كحائط برسم عليه بعض الزخارف البدائية ويملا شقوقه بالعديد من الكائنات والفرائس الممهلة



من أعمال الفنان: استسلام الحياة الشعبية

وله طاقة كاملة عجيبة، يتلخص في خضاه، ويسيطر عليه التريص والصمت قبل الانقراض على غيره وعن صباح الكيروسين يقول الناقد الفني (إيميه أزار): "يقوم المصباح بتحديد العالم المرئي، إنه يحدد مناطق الضوء والظل التي تنتمي إلى الفنان الشخصي لتتبرير غموض نظرة الفنان للعناصر، وغموض ما يجده أو يمثل في نفسه علامات استسلامه. العالم الخارجي للإنسان الذي يصوره حامد ندا هو المكان الذي تتداخل فيه كل أنواع الغموض والعناصر التي لا تنتمي إلى الواقع، فالمصباح عند ندا يمكن أن نعتبره معادلا لسجن الإنسان".

### إيربوتيكية ونساء

بدأ (ندا) في رسم المرأة في الأربعينات على هيئة منفرقة انتصارا منه لفكرة الفضيلة؛ ففي إحدى لوحاته الرسومية بالأحبار الضمنية والتي أنجزها عام 1946 - ضمن مجموعة الشاعر السبريالي الرحل جورج حنين- تحت عنوان شعبة الظلمات، يمكن أن نجد المرأة شقية وبلاشمة ذات قديمين وبيدين مفلطحتين غلظتتين، وشعرها أشعث يعيل إلى سحرة شمطاء جاعت من عالم غيب.

بيد وجهها ثلاثة أضعاف حجم الرجل الذي يقف بجانبها، والشعبة تشير إلى البؤس وقبح الطلعة، ثم يعيد ترتيب هذا المشهد ويواريه بالصنل الخشنى (الفضباب)؛ حيث يتعمق الإحساس بالسسط والاحتجاج. لم تستقر رمزية المرأة عند هذه الصورة لدى (ندا)، فقد جعلها في البداية أما حزينة في الخمسينيات، ثم رمزا للخصوية والتربة والوطن في نهايتها، ثم جزها من الثياب في السبعينات، ثم امرأة عصية تقص شعرها وترتدي الملابس القصيرة وتقف من الشوة والحلم في الثمانينات. تبدو النساء في معظم لوحاته تحولات الخصر، كبريات الأرداف في شكل مسطح ويشغل مساحة كبيرة من تفاصيل اللوحة بالإضافة إلى صبغة جنسية خاصة راقت أعماله في الستينات في اتجاه قوي وواضح نحو الرموز الجنسية (الإيربوتيكية) من خلال تحقيق إمتاع

جسدي مخلوط بحس فكاهي. تميزت مرحلة الثمانينات لدى (ندا) بمجموعة من الرسوم حول حفلات الينسوك الصاخبة، بالإضافة إلى تحوله إلى مراقب لحركات الناس وأفعالهم كلما أشد به الصمم. كان هذا الصمت يسمح له بالإضافة إلى ما يموج داخل نفسه، وما يتخلل في أعاقفه من همس رقيق، فثاني الصور والأشكال بحضورها التام وحيويتها المعهودة. إنها حالة كاريكاتورية تقلب الحد إلى مرل، وقد انعكس هذا على لوحاته فازدادت جرعة السخرية فيها، وقد لاحظنا أن فقد السمع الذي أدى إلى ارتفاع الضجيج والصحن الذي أديك على صياح معظم الوقت، بالإضافة إلى ظهور عازلي الأبواق الحساسة والجرامافون في مقدمة اللوحات.

في معرضه الأخير أصر (ندا) على أن تتمتع لوحاته بالعنصر الصوتي إلى جانب الصخب اللوني، ويتم توزيع الألوان ما بين جسد وصوت، وأما الجسد فقد عثر عليه في تجسيم المرأة متناسفة الأعضاء الرتيانة صاحبة القف الرمائي في عمر الربيع، تنحني من أول اللوحة حتى آخرها، لتكتشف عن جمال جسدها وأسراره، وأما الصوت فقد بدأ في استخدام آلات النحاس الموسيقية والتي تبدو ملتوية ذات أسلاك ملتفة حول بعضها إلى ما لا نهاية. إنه عالم غريب يغلب عليه اللون الأزرق، يستمد قوته من مركبة الإحلام ولا يخضع لقوانين الجاذبية الأرضية. لوحات تشف عن توق إلى الحياة وبهجتها بالرغم من المعاناة والألم، حيث الأنتن تأسس لمركبة اللوحة ويأتي الرجال في طور كاريكاتوري مرئي لا يتحلى من التهمك والسخرية، حيث كل المفردات تواقع والمرأة تستقر في بؤرة اللوحة.

توفي حامد ندا في 27 مايو عام 1990 بعد أن اصطدم رأسه بالقائم الحجري لباب غرفة التليفون في المرسم الذي يقم به وسط طابره يبعث وكالة الغوري الأثري بحي الأزهر، عندما انقطع التيار الكهربائي في أحد المباني عن مصر بأكملها، مما أقدفه وعيه وشدت رأسه، لقد كانت حياة حافلة مليئة بالإنجازات والمحطات.

كاتزواحف، والسحالي، والإبراص، وغيرها. هذه الزواحف التي كانت كثيرا ما ترتبط بجذلية الجنس والإحساس في الموروث الثقافي الشعبي، بالإضافة إلى كونها رمزا للشكر الكامن المكبوت داخل النفس البشرية.

في المرحلة الثانية كان لاستخدام الديك رمزية كبيرة في حياته الفنية بين الفجولة والثورة، بالإضافة إلى القطط وما له من رصيد ثقافي وشعبي عند العبد من المصريين، فهو بـ "سبعة أرواح".

في معرضه الأخير أصر (ندا) على أن تتمتع لوحاته بالعنصر الصوتي إلى جانب الصخب اللوني، ويتم توزيع الألوان ما بين جسد وصوت

